

مُتَذِّية

المؤلف : على بن ظافر الأزدي المصري

المتوفى سنة ٦٢٣ هـ

ولد ابن ظافر في القرن السادس الهجري سنة سبع وستين وخمسمائة ، في عصر كانت القرى الإسلامية تتجمع فيه للملاقة الصليبيين ، وفي بيئة يسودها الحماس الديني وتشتعل بنار الرغبة في الجهاد . ويخيم عليها قنم الحرب والقتال . في هذا الجو ولد ابن ظافر وتلقفه والده ، فتعهده بالتربية الدينية ، وذكرته بمصادر حياته أنه قرأ على والده الأصول وتفقه على يديه . وكان والده يدرس بالمدرسة المالكية بمصر ^(١) ولم تكشف المصادر بعد ذلك عما إذا كان قد حفظ القرآن ، كله أو بعضه ، وحصل قدراً من الحديث لا بد منه ، إلى عناصر ثقافية أحر يتطلبها التعليم الإسلامي في ذلك الأوان . وعلى أية حال فإن والد ابن ظافر كان يرسم لعلّ خطأً في الحياة ، وكان القى يرسم لنفسه خطأً آخر ؛ فقد كان متعلقاً منذ شببته بالدنيا ^(٢) ، متطلعاً لعتبة السلطان ، وأعد خطة حياته عدتها فنقف الأدب وعلوم اللسان العربي ، شأن كتاب العصر وشعرائه الذين يرقى بهم أدبهم إلى مرتبة الوزارة ، وبرع في الأدب ، فوجد في أديب العصر وراعيه الأدبي ، والوزير الخطير آنذاك القاضي الفاضل ما يأمل من تشجيع ورعاية . ولندع قلمه يحكى طرفاً من الحديث عن بدء حياته مع الأدب يقول : « . . كنت في صدر عمري وبدء أمرى نشطت لجمع أخبار الشعراء في البدائه والارتجال ومحاسن أشعارهم في مضايق الإسراع والإعجال ، وسجعت حكايات لم يرقصها في الطرس بنان ، ولم يطمثها قبلي إنس ولا جان ، فأوقفت عليها صدر ذلك الزمان ، وسيد فضلاء ذلك الأوان السيد الأجل الفاضل أبا على عبد الرحيم بن الحسن البيساني ، رحمه

(١) فوات الوفيات لابن شاعر ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

الله تعالى ، فحتمنى على الازدياد منها ، والتطلب لها والبحث ، فاجتمع من ذلك جزء أحكمت ترتيبه ، وهديت تبويبه ، وسميته بدائع البدائه ، ورتبت الأخبار في كل باب منه على ترتيب الأعصار ، فلما رأى ما اجتمع منه سر به واغضب ، وأكرم نزلته فاغضب ، وشرفنى على صغر سنى وكضارة غصنى بأن أنتسخه لخزائنه وجاه بحفظه وصيانتته .

ولتم لابن ظافر أدوات خطته في الحياة عكف على كتب التاريخ يدرسها وعلى أخبار الملوك يحفظ منها جملة وافرة . وهكذا تجمعت له أسباب ثقافية من علوم إنسانية ولسانية ودراسات إسلامية أهلته جميعا لشغل منصب الأستاذية . ويروى أنه درس بالمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه (١) ، ويبدو أنه شغل هذا المنصب في أخريات حياته بعد أن تنقلت به الأسباب في خدمة الملوك .

وربما كان أول اتصاله بالملك الأفضل على بن صلاح الدين في مرج عكا (٢) ، ثم اتصل بعد ذلك بالسلطان صلاح الدين ، وتوسل إليه بمؤلف تاريخى أدبى هو كتاب « ذيل المناقب النووية » (٣) . وخلص بعد وفاة صلاح الدين لابنه الأفضل على (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ) الذى تولى دمشق ، وكان قد لقيه في مرج عكا ، وقدم له قصيدة أورثها في صدر كتاب التشبيهات ثم أهدى له هذا الكتاب نفسه بعد سنوات حين تولى الماطنة ، وكان لا يزال حينئذ في ميعة الشباب .

وترسل ابن ظافر بعدئذ إلى الديوان العزيز (٤) . ثم تنقل في خدمة ملوك الدولة الأيوبية فاتصل بالملك العادل أبى بكر أخى صلاح الدين ، وكبير الأيوبيين من بعده ، وذكر ذلك فقال : « كنت في خدمة مولانا العادل خلّد الله ملكه بالإسكندرية سنة إحدى وستائة مع من ضمت حاشية العسكر المنصور من الكتاب ، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة مرتضعون لأفويق النعمة » (٥) . ثم اتصل

(١) فوات الوفيات لابن شاکر ج ٢ ص ١٠٦ / ١٠٧ .

(٢) ذكر هذا في الإهداء الذى قدم به لكتاب التشبيهات .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ٦٩ وهذا الكتاب خط بالأسكوريال .

(٤) يقصد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين والذى تولى مصر بعد وفاة أبيه . راجع وفيات الأعيان

ج ٢ / ٤١٤ .

(٥) بدائع البدائه ص ١٧٧ - ١٧٨ .